

التفسير والتأويل (الزمنخشي مثالا)

محمد الحبيب العلاني

يشرفني أن أسهم في هذا اللقاء الفكري بمركز الدراسات الإسلامية بالقيروان بدراسة حول التأويل لدى المعتزلة من خلال شخصية اعتزالية تركت بصماتها وآثارها في الفكر الإسلامي هي شخصية محمود بن عمر الزمنخشي الملقب بـ جـار الله. فمن المعلوم أن المعتزلة كانوا - بحق - الصفوة المثقفة في العصور الإسلامية المختلفة. فكان منهم علماء الكلام الذين دفعوا عن التوحيد والعقيدة الإسلامية خير دفاع في مواجهة الفرق الإسلامية التي انحرفت عقائدها بسبب المؤثرات الخارجية التي يمثلها أهل الديانات المختلفة من يهودية، ونصرانية ومانوية، وزرادشتية، وبراهمة، وصابنة، ودهريين. وكان منهم الأدباء والمفسرون، وأغلب النحاة، نسبوا إلى الاعتزال منهم الرماني والفارسي وقطرب والأخفش الأوسط وغيرهم. وقد اشتهر المعتزلة بكثرة المناظرة والمساجلة، حتى قال الجاحظ فيهم - وهو منهم - : " إن كبار المتكلمين، ورؤساء النظارين، كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء. وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني. وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء. وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم. فصاروا في ذلك سلفا لكل

حلف، وقدوة لكلّ تابع".⁽¹⁾ وهم الذين قدّسوا العقل، واعتبروه حجّة⁽²⁾، وراحوا يطلعون على عقائد الديانات الأخرى للردّ على المخالفين من أهلها. فطوّروا بذلك علم الجدل. وبرعوا في المناظرة. وترجع دواعي اختيار هذه الشخصية إلى معطيات أبرزها :

* تأخر الزمخشري زمنيا عن مرحلتي تأسيس الفكر الاعتزالي وثناء الثقافة التي أنتجها. عاش الزمخشري بين 467هـ 538 هـ.

* تأليف الزمخشري للكشاف- وهو من أشهر التفاسير الاعتزالية التي وصلتنا _ وتطبيقه لمنهج بيانيّ صارم طوّرتَه المدرسة الاعتزالية. * استفادة الزمخشري من علوم عصره وتشربّه من تلك الثقافة. حيث ألم بثقافة واسعة. فهو المتكلّم والمفسّر والمحدّث والنحوي واللغوي والأديب والشاعر، انقطع للعلم مخلصا له.

هذا وقد أجمع كلّ من ترجم لهذا العالم على فضله وعمق درسه واتساع ثقافته وقدرته على التوسّع في العلوم من الحذق والإتقان.

والملاحظ أنّ عناية الزمخشري بدراسة آيات القرآن في بيانها ونظمها وإعجازها، للردّ على الخصوم، ولتأويل ما يمكن تأويله وفق مذهبه واضحة. ومن المؤكد أنه الوارث الشرعيّ للنهج التفسير والتأويل وفق المدرسة الاعتزالية التي لم يصلنا منها في هذا المجال إلّا القليل.

وإذا تتبعنا في فهرست ابن النديم وفي طبقات المفسّرين للسيوطي أولى المؤلفات المهمّة بتفسير القرآن وتأويله عند المعتزلة، وجدنا كتاب "متشابه القرآن"⁽³⁾ " لبشر بن المعتمر المتوفي سنة (210هـ)،

(1) البيان والتبيين: 8-7/1.

(2) الحيوان : 207/1.

(3) الفهرست : 57.

وكتاب "معاني القرآن" للأخفش الأوسط (ت 211 هـ) ⁽⁴⁾، وكتاب "متشابه القرآن" لأبي الهذيل العلاف المتوفي سنة (235 هـ) ⁽⁵⁾. وألف في المتشابه _ أيضا- جعفر بن حرب المتوفي سنة (236 هـ) ⁽⁶⁾. وألف الجاحظ (ت 255 هـ) "نظم القرآن"، و"المسائل في القرآن" ⁽⁷⁾. وألف أبو عليّ الجبائي (ت 303 هـ) "تفسير القرآن" وكتاب "متشابه القرآن" ⁽⁸⁾. هؤلاء، هم أشهر من نسب إلى الاعتزال في مراحلهم التي أعقبت مرحلة التأسيس. ثم يأتي من بعدهم تلاميذهم الذي زادوا البحث في التفسير اتساعا، وخلطوا مسائل التفسير بمسائل الجدل والفلسفة. والناظر في طبقات المعتزلة، متبعا التسلسل التاريخي ويجد تأليف كثيرة لم تصل إلينا في التفسير. منها ما ألفه الأصم ⁽⁹⁾ (ت)، وما ألفه أبو هاشم الجبائي (ت 321 هـ) ⁽¹⁰⁾، وما ألفه أبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن إسحاق الشحام ⁽¹¹⁾، وابن الإخشيد (ت 326 هـ) له اختصار تفسير الطبري ⁽¹²⁾.

(4) معجم الأدباء : 11 / 224.

(5) الفهرست : 55.

(6) الفهرست : 55.

(7) الفهرست : 57.

(8) طبقات المفسرين : 88

(9) الفهرست 51.

(10) طبقات المفسرين : 88.

(11) كشف الضنون : 309/1.

(12) الفهرست : 246.

وَألف أبو بكر الشاشي المعروف بالقفال (ت 365هـ) تفسيراً نصر فيه مذهب الاعتزال⁽¹³⁾. ولأبي علي الفارسي (ت 377هـ) كتاب تفسير⁽¹⁴⁾. ولأبي حسن علي بن عيسي الرماني (ت 384هـ) كتاب تفسير القرآن المجيد⁽¹⁵⁾. وذكرت تفاسير أخرى لم يكملها أصحابها، ولم يصل إلينا جلّها أو قلّها. فربّما كان ما تبقى من التفاسير المنسوبة إلى المعتزلة ما أفاد منها. ومن أشهر هذه التفاسير، نجد كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار (ت 415هـ). وألف بعد القاضي من ألف من المعتزلة. لكن أشهر ما كتب في غرض التفسير منسوباً إلى المعتزلة، كتاب الزمخشري (ت 538هـ) المسمّى: "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل". فقد أحيى به صاحبه ما عفا من تفاسير المعتزلة. وظهرت فيه مقاييس دقيقة في التأويل.

يعتبر مبحث التأويل من المباحث الدقيقة والشائكة في آن. ذلك أنّ التطور الحاصل في مثل هذه الدراسة، قد أدّى بالمفسرين إلى البحث عن الوسائل التي تمكّن المفسّر أو المؤوّل من الانصراف عن الظاهر إلى ما به يصحّ محمل ذلك الوجه من التوليد الجديد للمعنى.

وفي بحثنا عن خصائص التأويل عند الزمخشري تجلّية للآلات المستخدمة من قبله وإبراز لأهمّ الخلفيات التي كانت توجه عمله.

لقد اقترن تطوّر التأويل عند المفسّرين بتطوّر مجموعة من العلوم ساعدت على بلورة مفهومه، وكان الغالب على المفسرين تمسّكهم بالرواية قبل البحث اللغوي الذي أصبح مشغلاً من مشاغل المفسّرين في القرن الثاني للهجرة اقترن أيضاً بالسّماع والقياس.

(13) طبقات المفسرين : 36.

(14) معجم الأدباء : 240/7-241.

(15) معجم الأدباء : 75/14.

وقد عمل الزمخشري شأنه شأن البلاغيين من قبله على تتبع الأبيات التي تظهر فيها عيوب مخلة بمقاييس الفصاحة، كالتنافر في الحروف.

كما تتبّعوا الغرابة التي يحتاج إلى معرفتها بالرجوع إلى كتب اللغة أو مخالفة القياس أو الخلوص من الكراهة في السمع، هذا بالنسبة إلى الألفاظ⁽¹⁶⁾.

أمّا الكلام، فهو خلوص من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد⁽¹⁷⁾، واعتمادا عليه وجه عمل المفسر والمؤول.

ولعلّ تطوّر مقاييس النقد الأدبي، راجعة _ بالأساس- إلى تعدّد اللغات واختلاف اللهجات في اللغة العربية، وتداخل مقاييس الفصاحة بين اللغة الأدبية والنموذجية التي نزل بها القرآن، واللغة المستعملة التي تتأثر بمؤثرات عديدة، قد أتى _ كل ذلك _ أكّله عند المفسرين والمؤولين عموما وعند الزمخشري بالخصوص.

ولقد مهّد للتأويل عمل المفسرين في تقليب الاحتمالات اللغوية، ثمّ القيام بعملية الترجيح بعد النظر في الرواية⁽¹⁸⁾، ليصبح التأويل _ بعد ذلك- وسيلة لتخريج بعض الوجوه الجديدة في التفسير والأحكام.

ولا يمكن الحديث عن تطوّر التأويل بمعزل عن تطوّر بعض المعارف ودخولها في معترك الحياة العلمية، وخاصة القياس المبني على

(16) الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة، مختصر تلخيص المفتاح : 4، دار الجيل، بيروت ، لبنان د.ت.

(17) نفس المصدر : 4-5-6-7.

(18) التقدير مقابل للوصف والتفسير والتعليل كمقابلة الحق للواقع المعجم الفلسفي : 324/1.

المنطق، ثمّ علم الكلام الذي استفاد أصحابه من الفلسفة والمنطق الصوري الأرسطي⁽¹⁹⁾.

لاسيما الزمخشري وهو المعتزليّ المتكلّم الذي اتخذ لبحوثه منهجا فلسفيا سار عليه واشتهر به، وكان يتّخذ لنفسه آراء مستقلة في كثير من المواطن.

ولذلك ، سنركّز على منهج الزمخشري في استخدامه النص القرآني، وفي استفادته من اللغة والأدب لبلورة رؤية ثرية في مجال التفسير والتأويل والعلوم المساعدة على إدراكهما.

ولا شك أنّ ثقافة الزمخشري، فرضت عليه اطلاعا واسعا، ومعرفة دقيقة، ودراية عميقة باللغة العربية المرتكزة بالدرجة الأولى على السماع فقد كانت نظريته للعلوم الإسلامية ، نظرة متكاملة. ففي علم العربية _ مثلا- اهتمّ الزمخشري بالنحو والبلاغة والأدب، واعتبرها علوما ضرورية لفهم سائر العلوم الشرعية. يقول : "وذلك، أنّهم، لا يجدون علما من العلوم الإسلامية، فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها، إلّا وافترقاه إلى العربية بين لا يدفع. ومكشوف لا يتقنّ. ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها، مبنيا على علم الإعراب، والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيويه ، والأخفش، والكساني، والفرّاء، وغيرهم من النحويّين البصريّين والكوفيّين⁽²⁰⁾ . ولذلك كان التّأويل عند الزمخشري والمعتزلة مرتكزا على التبحّر في العربية بالدرجة الأولى التي تمّ تقعيد قواعدها اعتمادا على السّماع والقياس.

ولئن كان البعض قد حدّد مدّة السماع بالقرنين الأوّلين للهجرة اعتبارا لنجاة البصرة ثمّ الكوفة ، فإنّ المسألة بقيت خلافية لأنّ السماع قد

(19) المنطق الصوري (Logique formelle) هو النظر في التّصورات والقضايا والقياسات من حيث صورتها، ولا من حيث مادّتها. ويطلق في العامّة على منطق أرسطوا أو المنطق القياسي بصورة عامّة . المعجم الفلسفي : 429/2.

(20) الفصل: 3.

تواصل إلى نهاية القرن الرابع الهجري⁽²¹⁾ وقد أباح ابن جني أن يقاس على مختلف اللغات⁽²²⁾.

وإذا كان الزمخشري قد أشار في كتابه "أساس البلاغة" أنه قد وطئ كلّ تربة من بلاد العرب، فإنّ ذلك يرجّح اتّساعه وتساهله في السماع. فيكون من أنصار التّوسّع في السماع، ومدّ فترته الزمنية إلى القرن الخامس الهجري، والقرن السادس أيضا. ومهما يكن، فإنّ اختيارات الزمخشري في القرآن واللغة، ترشدنا إلى جانب كبير من ثقافته السماعيّة، وأصول تلك الثقافة.

ونظرا لضيق المقام وغزارة المادّة اللغويّة والتفسيريّة التي كانت تنحو في الغالب منحى تأويليّاً رأيت من الضروري أن يقع الاختصار على نماذج من الكشف لجمع شتات المادّة والوقوف على نماذج تطبيقيّة من عمل الزمخشري. فهو تارة يطعن في الروايات وأخرى يشكّك في مرسوم المصاحف ويرجّح سهو النّسخ في عدّة مواضع، وأحيانا يقبل الرواية ويعضّدها بمقاييس الفصاحة مغلبا القياس.

ونراه — في مواضع كثيرة — يورد وجوه اختلاف القراءات، ويعزو ذلك إلى اختلاف مرسوم المصاحف دون توجيه لغوي، أو تعليل نحوي. وكثيرا ما يعتمد مواقف غيره من النحاة اللغويين⁽²³⁾، وخاصة أصحاب الرأي والقياس، من البصريين، والقراء النحاة، وسيبويه⁽²⁴⁾ علم المدرسة البصريّة الذي اعتمد على آرائه الواردة في "الكتاب".

وفي المقابل، نجده يسلم بالرواية، والاستعمال، وما جرى على اللسان العربي. فيقبل بعض أوجه قراءة القرآن إذا كانت موثقة تجري على سنن الفصاحة واللغات الجارية في استعمال الفصحاء من العرب.

(21) ابن جني-مثلا- سمع من أعراب البادية.

الخصائص : 76/1

(22) الخصائص : 11/2.

(23) راجع مثلا الفصل، 302.217.

(24) انظر مثلا الكشف: 127/4.

والزمخشري، يتبنّى القياس في كل ما يستخدمه من أمور، سواء ما يتعلّق بالقراءة، أو الرسم، أو النحو، أو البلاغة، أو اللغة، وهو -منهجياً- يطبّق النحو - من خلال وجهته ومذهبه.. وعلى القرآن، كما يطبّق الرسم القياسي على الرسم العثماني المصحفي. فكانت النتائج - كما سبق أن بيّناه- إغفالا لمنزلة الرواية، وتغليباً لمقياس النحو، من ورائه الفصاحة على جميع المذاهب. فالمعنى اللغوي المتولّد من القراءات يخضعه لمقاييسه ويردّ ويقبل وفقه وجه تأويله.

ولا يبرأ جاز الله من تأثير نحله ونزعه على اختياراته التفسيرية والتأويلية. فهو أقرب إلى نحاة البصرة وقرائها لغلبة التوجّه البصريّ عليه في اللغة والنحو. وهو أقرب إلى مدرسة الرأي حين ينتصر لما روى عن أبي حنيفة الذي يتبنّى الزمخشري مذهب الفقهيين، ومن وراء النزعة العقلية.

وقد ورد في "الكشاف" ما يعضد الرأي المنسوب إلى الزمخشري، ويفتح للقياس على أي الكتاب أبواباً يتداخل فيها النحو بالتفسير والتأويل، ليقع - من خلال تتبع معنى- تأكيد الوظيفة النحوية، والأسلوب البلاغي في آن، مع تحقيق مضمون العبارة القرآنية، والصياغة النحوية التي تمكن من استخراج القاعدة، قياساً على أي الكتاب المجيد.

فقد جاء في "الكشاف" ⁽²⁵⁾ عند تفسير قول الله تعالى : فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا" (البقرة 24/2) استفسار الزمخشري بقوله : "é" فإن قلت ما حقيقة لن في باب النفي ؟ قلت : (لا) و(لن) أختان في نفي المستقبل. إلّا أنّ في (لن) تأكيداً وتشديداً. تقول لصاحبك : لا أقيم غداً. فإن أنكر عليك ، قلت: لن أقيم غداً ، كما تفعل في (أنا مقيم).

(25) الكشاف : 248/1.

ثم يؤكد ما يريد التوصل إليه بمثال آخر من "الكشاف" ⁽²⁶⁾ عند تفسير قوله تعالى: "ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم" (البقرة 95/2). قال: "وقوله (ولن يتمنوه أبدا) من المعجزات لأنه إخبار بالغيب. وكان كما أخبر به، كقوله (ولن تفعلوا).

ثم تتأكد إفادة التأييد بمثال آخر من تفسير قوله تعالى: "قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها" (المائدة 24/5). قال جار الله: " (لن ندخلها)، نفى لدخولهم في المستقبل على وجه التأكيد و(أبدا) تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطول، و(ما داموا فيها)، بيان للأبد ⁽²⁷⁾ ". فهذا التدرج من الزمخشري، قاد في نهاية المطاف إلى القول بأن (لن) تفيد تأكيد النفي إلى حد التأييد. ويفهم ذلك من السياق.

وفي تفسير قوله تعالى: "إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مسومين" (آل عمران 124/3)، قال جار الله ⁽²⁸⁾ : "ومعنى (ألن يكفيكم) إنكار ألا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة. وإنما جئ بـ"لن" الذي هو للتأكيد _ تأكيد النفي- للإشعار بأنهم كانوا _ لقلتهم، وضعفهم، وكثرة عدوهم- كالأيسين من النصر".

ويستمر الزمخشري في تقرير ما تفيد (لن) بحسب السياق، فتنوع الدلالات. فيورد تفسير قوله تعالى: "قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني" (الأعراف 143/7) يقول ⁽²⁹⁾ : "فإن قلت: ما معنى (لن)، قلت تأكيد النفي الذي تعطيه (لا). وذلك أن (لا) تنفي المستقبل. تقول: لا أفعل غدا. فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غدا. والمعنى، أن فعله، ينافي حالي،

(26) الكشاف : 297/1.

(27) الكشاف: 604/1.

(28) الكشاف : 297/1.

(29) الكشاف : 113/2.

كقوله تعالى : " لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا " (الحج 73/22). فقوله :
"لا تدركه الأبصار" الأنعام (6/ 103)، نفي للرؤية فيما يستقبل، و(لن
ترائي) تأكيد وبيان، لأنّ النفي مناف لصفاته. فالملاحظ ممّا سبق أنّ
التأويل الاعتزالي لهذه الآية _ وإن كان يغلب عليه التلميح- كان عنصر
تأكيد واضح استخدمه جار الله ليستخرج دلالة (لن) قياسا على أي
الكتاب الكريم.

ومّا يؤكد معنى التأييد في (لن) ، ما ورد عند تفسير الزمخشري
لقول الله تعالى : "وأوحى إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد
آمن "هود 36/12). يقول ⁽³⁰⁾ : "لن يؤمن، إقناط من إيمانهم، وإنّه كالمحال
الذي لا تعلّق به للتوقع".

وعند قوله تعالى : "فلن يهتدوا إذا أبدا" (الكهف 57/18).
يقول ⁽³¹⁾ : " فلا يكون منهم اهتداء البتة، كأنه محال منهم لشدة
تصميمهم. (أبدا) ، مدّة التكليف كلّها". وهو ما يؤكّد معنى الاستحالة، كما
أكّده عند تفسير قول الله تعالى : " لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له"
(الحج 73/22). يقول جار الله ⁽³²⁾ "(لن) أخت (لا) في نفي المستقبل، إلاّ
أنّ (لن) تنفيه نفيا مؤكّدا، وتأكيد هاهنا، للدلالة على أن خلق الذباب
منهم مستحيل مناف لأحوالهم، كأنه قال: محال أن يخلقوا". وعند قوله
تعالى : "ولن يؤخّر الله نفسا إذا جاء أجلها" (المنافقون 11/63)، يقول
⁽³³⁾ : "(ولن يؤخّر الله) ، نفي للتأخير على وجه التأكيد الذي معناه
منافاة النفي للحكمة. وهذا مفيد للاستحالة.

وعند تفسير قوله تعالى : "فذوقوا فلن نزيدكم إلاّ عذابا " (النبأ 78-
30) يقول جار الله : " (فذوقوا)، مسبب عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم

(30) الكشف: 268/2.

(31) الكشف 489/2.

(32) الكشف : 22/3.

(33) الكشف : 112/4.

بالآيات. وهي آية في العذاب وناهيك بـ (لن نزيذكُم) ، وبدلالاته على أن ترك الزيادة ، كالحال الذي لا يدخل تحت الصحة ، وبمجئها على طريقة الالتفات شاهداً على أن الغضب قد تبالغ. وعن النبي – صلى الله عليه وسلم- هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار" (34)

وعلى ضوء ما تقدّم، يتّضح لنا أنّ التأويل، قد أكّد معنى التأييد في (لن) عند أغلب المواقع ، بحسب السياق والدلالة. وهو ما يؤكّد تأثير الزمخشري ، في عمله النحوي، بعمله البياني الذي كان بارزاً في "الكشاف"، ممّا أتاح له التوسّع في القياس النحوي ، بمعناه الواضح المبسّط الذي اتّخذه الزمخشري سبيلاً لربط النحو العربي بأصول الفصاحة والبيان ، كما جاءت في القرآن الكريم. فكان هدف الزمخشري من الدراسات النحوية، خدمة النحو العربي، وتطويعه، لتحقيق ما أراد الكشف عنه من الأساليب البلاغية العربية التي نزل الذكر الحكيم على سننها معجزاً، ومهيماً على سائر الكلام. وفي عمل الزمخشري، رجوع إلى الغاية من نشأة النحو، باعتباره علماً تعرف به أحوال الكلام (35) ، أو باعتباره علماً تعرف به كيفية التركيب العربي صحّة سقاماً، وكيفية ما يتعلّق بالألفاظ من حيث وقوعها (36). ثمّ يكون كلّ ذلك عنده خادماً للتأويل.

والحقيقة، أنّ الزمخشري اجتهد في توجيه الشواهد القرآنية توجيهها يتماشي مع الفصاحة القرآنية. ومن المهمّ، الإشارة إلى أنّ الزمخشري، كثيراً ما يخضع النحو للقرآن، على عكس ما مرّ بنا سابقاً. وهذا ، ما يجعلنا نستغرب من مواقفه التي تبدو- أحياناً- كأنّها متناقضة بين ميله إلى النقل ميلاً يوحى بأنّه أثريّ، وميله إلى القياس والرأي إلى درجة

(34) الكشاف : 210/4.

(35) التعريفات ، 840.

(36) كشاف اصطلاحات الفنون: 17/1.

التشدد. وهذا مثال من "الكشاف" ينكر من خلاله الزمخشري إمكانية تسرب أي خطأ في نسخ المصحف والرسم القرآني. وكان قد صرح بعكس ذلك. يقول في تفسير قوله تعالى: "لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما" (النساء 162/4) و(المقيمين) نصب على المدح لبيان فضل الصلاة وهو باب واسع. وقد كسره سيبويه على أمثلة* وشواهد. ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنا في خط المصحف، وربما التفت إليه ما لم ينظر في الكتاب، ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان، وخفي عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل، كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلثة ليسدّها وفرقا يرفوه من يلحق بهم" (37).

ولا ندري؛ أيحمل هذا التناقض على الوجه نفسه من كون الزمخشري يضعف ما لم يوافق مقاييس الفصاحة لديه فيأخذ بأقوال الطاعنين في ذلك الوجه بعينه. ويردّ على هذا الطعن إذا كان الوجه فصيحاً يجري على مقاييس البلغاء لديه؟ ثم التأويل.

وقد استفاد صاحب "المفصل" من آراء الخليل بن أحمد مؤسس النحو العربي — بالمعنى العلمي للكلمة — ثم تلميذه سيبويه الذي نقل آراءه في "الكتاب" ثم بقيّة النحاة، كالأخفش والمبرد والمازني والكسائي والفرّاء والفارسي وغيرهم من تقدّم الحديث عنهم.

ولقد عوّّل الزمخشري تعويلاً كبيراً على (فتح باب الاحتمالات في الإعراب، واستنباط العلل) شأنه شأن أغلب النحاة واللغويين والمفسرين.

(37) الكشاف : 313/1.

وجمع في "المفصل" و "الكشّاف" أوجها عديدة من القراءات الشاذة

نقلها عن "المحتسب" وكتب التفسير و "معاني القرآن وإعرابه" ⁽³⁸⁾.
هذا وقد كانت أعماله في البحث عن مواطن الإعجاز، مادة هامة
شدّت انتباه المفسّرين من بعده. وكانت تفاسيرهم مشحونة بآرائه،
مستلهمة من نتائج بحثه ما يعدّ عمدة في هذا الباب من العلم الذي
وضعه الجرجاني ، وطبقه الزمخشري أحسن تطبيق.

لعلّ أهميّة " الكشّاف " البالغة، تظهر في كونه تفسيراً بيانياً اعتمد
فيه صاحبه علوم اللغة كلّها ، وطبّق فيه ما آلت إليه خبرات عصره العلميّة
والأدبيّة ، وما كان له صلة بالتفسير والتأويل في الكشّاف _ ممّا يبرز
الخصائص التأويليّة والتفسيريّة لهذا الكتاب من خلال بعض النماذج :

*** النموذج الأوّل :** في تفسير قوله تعالى : "الرحمان على العرش
استوى" طه (5/20) أورد الزمخشري الإمكانات الإعرابيّة المرتبطة
باختلاف أوجه القراءات .يقول : " قرئ (الرحمان) ⁽³⁹⁾ مجروراً، صفة
لن خلق. والرفع أحسن ، لأنّه ، إمّا أن يكون مبتدأ مشاراً بلامه إلى من
خلق ⁽⁴⁰⁾ . فهو يتخيّر من الإعراب ، ومن أوجه القراءة، ما يتناسب
وروح التفسير ، مع الوفاء لمبدأ التوحيد الذي ينبثق منه التنزيه المطلق لله
تعالى، والتعظيم الأكبر لربّ العزّة. ويتابع الزمخشري تفسير قوله تعالى
(على العرش استوى). فيتساءل : فإن قلت الجملة التي هي المدح ؟ قلت :
إذا جررت، فهي خبر مبتدأ محذوف، لا غير وإن رفعت، جاز أن تكون
كذلك، وأن تكون مع الرحمان خبرين للمبتدأ" ⁽⁴¹⁾. وهو _ بذلك _

(38) المستقرئ للكشّاف يستنتج ذلك.

(39) وردت قراءة الخفض في : البحر المحيط: 226/6، وتفسير الرازي: 5/22 دون نسبة.
ونسبها ابن خالويه في "الشواذ" إلى جناح بن حبيش.. معجم القراءات القرآنيّة : 70/4..

(40) الكشاف: 427/2.

(41) نفس المصدر: 427/2.

يؤكد اختياره في الرفع، لما ينجرّ عنه من معاني التعظيم والمدح عند التقدير. ويفسّر جار الله العرش بسرير الملك، كناية عن الملك⁽⁴²⁾، بعيداً عن التجسيد والتشبيه.

* النموذج الثاني : في تفسير قول الله عزّ وجلّ : "وقل الحقّ

من ربّكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " (الكهف 29/18) ، يقول جار الله : " (وقل الحقّ من ربّكم) ، الحقّ خبر مبتدأ محذوف. والمعنى ، جاء الحقّ وزاحت العلل. فلم يبق إلّا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك. وجئ بلفظ الأمر والتخيير، لأنّه ، لما ممكّن من اختيار أيّهما شاء، فكأنّه غير مأمور بأن يتخيّر ما شاء من النجدين" (43) فهو يجري الصيغ مجرى العام الذي يريد تبليغه في أنّ الإدارة الإنسانيّة حرّة. ولا يظلم ربّك أحد.

ومن قوله تعالى : "فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون"

(يونس 58/10) ، أورد الزمخشري قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم _ وهي من قراءات الآحاد- : " فبذلك فلتفرحوا". ولا يخفى ما فيها من معنى الالتفات. ثمّ علّق عليها بقوله: " وقرئ فلتفرحوا بالتاء. وهو الأصل والقياس. وهي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه لتأخذوا مضاجعكم. قالها في بعض الغزوات (44) . وفي توجيهه قراءة الرفع من قوله تعالى : " ولا يلتفت منكم أحد إلّا امرأتك " (هود 11/81) استفسر الزمخشري عن علة النصب في (إلّا امرأتك) بقوله : " ما وجه قراءة من قرأ (إلّا امرأتك) بالنصب. قلت استثناها من قوله

(42) نفس المصدر : 427/2 .

(43) الكشف : 388/2 .

(44) الكشف : 194/2 .

(فاسر بأهلك) ⁽⁴⁵⁾ . "ثمّ يقول : " والدليل عليه ، قراءة عبد الله (فأسر بأهلك بقطع من الليل إلّا امرأتك)، ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت على أصل الاستثناء . " ثمّ يقول : " وإن كان الفصيح هو البديل أعني قراءة من قرأ بالرفع، فأبدلها عن أحد" ⁽⁴⁶⁾ . فقد نعت قراءة الرفع بالفصاحة، مع أنّ القراءتين متواترتان. وهو _ بذلك _ يفتح باب المفاضلة بين القراءات باعتبار مقياس الفصيح والأفصح، والبلغ والأبلغ.

و الملاحظ في "الكشاف" ، أنّ جار الله، يفضل من أوجه قراءات القرآن ما تحفظ الجانب الجمالي في أسلوب القرآن. وهو ويقدمها في الاعتبار على القراءات الأخرى الأقلّ درجة من هذه الناحية. ونراه لا يهتمّ إن كانت تلك القراءة ممّا تواتر أو ممّا روي آحاد، مع أنّه ينسب القراءة _ في الغالب _ إلى أصحابها من القراء ، خاصّة قرّاء الشاذ. وهو _ في كل ذلك _ يهتمّ بالجانب البلاغي. ويوسّع المعاني خدمة للتفسير والتأويل.

*** النموذج الرابع :** في تفسير قوله تعالى : " فإذا عزمتم فتوكّل على الله) " آل عمران 159/3 ، يقول جار الله " (فإذا عزمتم) ، فإذا قطعت شيئاً بعد الشورى (فتوكّل على الله) في إمضاء أمرك على الأرشد الأصلح. فإنّ ما هو أصلح لك، لا يعلمه إلّا الله ، لا أنت، ولا من تشاور" ⁽⁴⁷⁾ . ثمّ يورد أوجه القراءات. يقول : "وقرئ (فإذا عزمتم) بضمّ التاء ، بمعنى فإذا عزمتم لك على شيء، وأرشدتك إليه ، فتوكّل على

(45) الكشاف 227/2.

(46) الكشاف 227/2.

(47) الكشاف : 226/1.

الله ، ولا تشاور بعد ذلك أحداً" (48). فهو يتأوّل المعنى، بناء على اختلاف القراءات. وقد جاء قوله تعالى (على الله)، على الالتفات ؛ وإلا لقال (فتوكّل عليّ). وفقد نسب العزم إليه على سبيل المجاز (49).

*** النموذج الخامس :** في تفسير قوله تعالى :ولتصنع على عيني" طه (20/ 39)، يقول الزمخشري : " (على عيني)، لتربى ويحسن إليك، وأنا مراعيك ومراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينه، إذا اعتنى به. وتقول للصانع اصنع هذا على عيني أنظر إليك، لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي" (50). فهو يحرص على أن يحمل المعنى الظاهر على المجاز ليتعد عن كل تشبيه و تجسيد، سعياً منه لتنزيه الذات العليّة. ثم يوضّح جار الله المعنى الإعرابي ويورد أوجه القراءات. يقول " :ولتصنع معطوف على علّة مضمرة مثل ليتعطف عليك. وقرئ (ولتصنع، ولتصنع) بكسر اللام وسكونها. واجزم على أنه أمر. وقرئ (لتصنع) بفتح التاء والنصب (51)، أي وليكون عملك وتصرفك على عين منّي" (52).

وإذا كان ابن جنيّ لم يتوف كتابه" المحتسب في توجيه القراءات الشاذّة من كلام العرب" فإنّ محمود بن عمر، قد أثرى التفسير والتأويل

(48) نفس المصدر : 226/1.

(49) البرهان: 341/1.

(50) الكشف : 433/2.

(51) قرأ : (ولتصنع) أبو جعفر وشيبة.

-قرأ: (ولتصنع) أبو جعفر

-قرأ : (ولتصنع) الحسن.

-قرأ : (بالإدغام الكبير) أبو عمرو ورويس ويعقوب.

معجم القراءات القرآنيّة : 81/4.

(52) الكشف : 433/2، وانظر التبيان للعكبري : 891/2.

معا بالاعتماد على مثل هذه القراءات _ لاسيما في الفروع الفقهيّة عند تناوله بالتفسير آيات الأحكام-

وسنعرض فيما يلي بعض النماذج التي يتداخل فيها التأويل النحوي بالتأويل في التفسير والفقّه على وجه الخصوص.

*** النموذج الأوّل :** في تفسير قوله تعالى : " يا أيّها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين " (المائدة 6/5) ، بحث الزمخشري في وجوب الوضوء لكل صلاة. وأورد الأحاديث في ذلك. ثمّ انتقل إلى بيان اختلاف المذاهب في الغسل والمسح. ثمّ أورد اختلاف القراءات، وما يفضي إليه في الإعراب. وقبله، تحدّث عن الباء المفيدة للإلحاق في مسح الرأس ، مبينا مذهب أبا حنيفة وحكمه في ذلك. يقول : "قرأ جماعة وأرجلكم بالنصب. فدلّ على أن الأرجل مغسولة فإن قلت : فما تصنع بقراءة الجرّ، ودخولها في حكم المسح، قلت : الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة، تغسل بصبّ الماء عليها، فكانت مظنة للإسراف المذموم المنهي. فعطفت على الثالث المحسوس، لا لتمسح؛ ولكن لينبّه على وجوب الاقتصاد في صبّ الماء عليها" ⁽⁵³⁾. فهو يجري الأوجه المختلفة، ويؤوّل وفق مذهبه الفقهي على رأي الأحناف أهل الرأي الذين يلتقي جار الله معهم. ثمّ يقول: "وقرأ الحسن (وأرجلكم) بالرفع، بمعنى وأرجلكم مغسولة أو ممسوحة إلى الكعبين" ⁽⁵⁴⁾. فنراه كيف يقول بجواز المسح عند الأئمة ، مع أنّ السياق يوحي بكونه لا يستحسنه، وهو _أيضا_ يسعى إلى أن يدور مع معاني القرآن قوّة المعنى ". ⁽⁵⁵⁾

(53) الكشف : 1 / 326-327.

(54) نفس المصدر : 1 / 327.

(55) راجع : مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه : 177-178 ، دار المعارف بمصر 1959.

*** النموذج الثاني :** في تفسير قوله تعالى: "إِنَّ الصَّافَا وَالْمُرْوَةَ
 مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا"
 (البقرة 158/2)، يقول الزمخشري : "واختلف في السعي ، فمن قائل
 هو تطوُّع ، بدليل رفع الجناح وما فيه من التخيير بين الفعل والترك
 كقوله (فلا جناح عليهما أن يتراجعا) وغير ذلك، ولقوله (ومن تطوَّ
 خيرا) ، كقوله (فمن تطوَّع خيرا فهو خير له) ويروي ذلك عن أنس،
 وابن عبَّاس، وابن الزبير. تنصره قراءة ابن مسعود (فلا جناح عليه ألا
 يطوف بهما). وعن أبي حنيفة _رحمه الله_ أنه واجب. وليس بركن.
 وعلى تاركه دم. وعند الأولين ، لا شيء عليه. وعند مالك والشافعي،
 هو ركن ، لقوله _عليه السلام_ : (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكَ السَّعْيَ). وقرئ
 (ومن يتطوَّع) ، بمعنى ومن يتطوَّع ، فادغم. وفي قراءة عبد الله (ومن
 يتطوَّع بخير)" (56).

مَّا تقدَّم ، يبدو لنا الزمخشري مقارنا بين آراء الفقهاء ، يدور مع
 الأحكام والقراءات. ولم نره يغلط قراءة ابن مسعود (فلا جناح عليه أن
 لا يطوف بهما). (57)

تتضح من خلال هذه الوقفة مع الزمخشري أهميَّة المقاييس اللغويَّة
 البيانيَّة في توجيه التفسير والتأويل وحسبنا أنَّنا حاولنا التنبيه إلى قيمة هذا
 البحث والمستقصي لعمل الزمخشري يلاحظ أنَّ جار الله قد تدرج في
 سلم علوم العربيَّة من علم الأصوات إلى علم التصريف مرورا بعلم النحو
 الذي جعله مرقاة إلى علوم البيان، وأجرى- تبعا لذلك- اختياراته في
 التفسير والقراءة والتأويل وفق هذا المسلم.

فكان المقياس الصوتي حاضرا من خلال مبادئ الخفَّة والثقل والتناسب
 والتنافر في الكلم، وصولا إلى القواعد العامَّة ، كقاعدتي "التجاوز

(56) الكشف : 104/1.

(57) أوردهما أبو حيَّان في البحر المحيط: 456/1 وابن جنِّي في المحتسب: 104/1 والفخر
 الرازي في التفسير الكبير: 45/2.

الصوتي" وقاعدة "الاستعمال" وغيرها من القواعد الهامة التي يمكن الاعتماد عليها في اختيار الفصيح ممّا جرى على ألسنة العرب. وأمّا المقياس الصرفيّ فواضح في بنية الكلمة التي تنبو عن الغرابة والتنافر الحرفي. ويظهر المقياس النحوي في تناسق التركيب وجمال التصنيف. وأمّا المقياس البياني فيبين في روعة النظم واكتمال الصورة الأدبية باجتماع هذه المقاييس في الكلم العربي.

ومن خلال "الكاشف" يمكن الوقوف على بعض قدرات الزمخشري العلميّة لأنّ هذا الكتاب _ يعد بحقّ- موسوعة بيانيّة نحويّة لغويّة ، طبّق من خلالها جار الله كلّ ما حذقه من علوم، مع وفائه لمذهب الاعتزال ، ودفاعه عن عقائد المعتزلة ومواقفهم.

والملاحظ، أنّ منهج الزمخشري وعمله، قد كانا قريبين من الموضوعيّة، لأنّ المقاييس التي وضعها في اختياره _ وإن كانت نسبيّة _ فإنّها تحمل في داخلها قوّة المنطق، وسلامة الحجّة ، ودقّة الاختيار ، وضبط العلماء. وهو عمل قلّ أن يجتمع عند باحث يهدف إلى إدراك الحقيقة العلميّة ويغار على كتاب الله وعلى اللغة التي نزل بها.